تدبر القرآن الكريم

وتطوير مناهج التربية والتعليم

في الجامعات الفلسطينية بغزة

إعداد الباحثين

د. ناهض صبحي فورة
أستاذ المناهج وطرق التدريس
جامعة الأقصى

د. طلال محمد خلف
أستاذ أصول التربية المساعد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ [الكهف: ١-٢].

والصلاة والسلام على مَن كانت معجزته القرآن، وكان خُلقه القرآن ، وربيع صدره ، ونور قلبه وجلاء حزنه القرآن وتدبره ، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه الذين اتّبعوه ، واتبعوا النور الذي أُنزل معه ، وتدبّروا آياته أولئك هم المفلحون، فهم مَن تربَّوا على موائد القرآن والحكمة (السنة المطهرة).. وتخرّجوا من مدرسة معلِّم البشرية وهاديها بأمر ربه عليه السلام .

فقادوا البشرية بهذا المنهاج الرباني وأخرجوها من الظلمات إلى النور.. بعد أن فهموا القرآن وتدبّروه وآمنوا وعملوا به.. فكانوا وبكل جدارة مصاحف تمشي على الأرض.. وكانوا خير أمة أُخرجت للناس.

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يعيشون مع هذا المنهاج في صحبة رسول الله ﷺ أو في حياتهم الخاصة والعامة، ومع أن الوحي انقطع والنبوة قد انقضت إلا أن منهاج الله بقى يحمل خصائصه ؛ ليكون ليِّنا على قلوب المؤمنين.. مُيسَّراً للذكر بيِّناً متكاملاً.. ولأنه النظام والمنهاج الإلهي الذي ختم الله –تعالى– به الشرائع وجعله النظام والمنهاج الكامل لجميع نواحي الحياة .. وللبشرية جمعاء لقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة: ٣] ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء ٩] ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأعراف ٥٢].

فكان المنهاج رباني المصدر والمنبع، رباني الوجهة والغاية.. أصوله مستمدة من الوحي الإلهي الوارد في الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

وامتاز هذا المنهاج بأنه قائم على التوحيد ؛ لكونه المقوِّم الأول للنظام الإسلامي وهو أساس العقيدة، وبه يتفرد المنهاج الإسلامي من بين سائر النظم والمناهج والفلسفات ؛ ولذلك يقوم على أساس ألوهية الله – تعالى– ، وعبودية العباد جميعاً ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات ٥٦].

كما كان هذا المنهاج للناس جميعاً عالمياً وثابتاً في مقوّماته الأساسية.. وفي قِيمه التي لا تتغير كما امتاز هذا المنهاج بالشمول والتوازن والإيجابية والواقعية.. ومواكباً للفطرة الإنسانية ويعمل على تزكيتها وحِفْظها من الانحراف ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة ١٥-١٦].

وكان المنهاج مُحقِّقاً لهدف التربية الأساسي وهو (إخلاص الطاعة والعبادة لله) ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾ [البينة٥]، كما كان موافقاً -في تدرّجه ومستواه في كل جزء منه - المرحلة التي يعالجها للصغار والكبار، وعلى اختلاف الأجيال وتنوع البلدان والأمصار، ومدارس التربية والتعليم منها.. من مدرسة ابن الأرقم ﷺ إلى كل مدارس المسلمين في مختلف الأزمان.. ومن الكتاتيب إلى المدارس بكل مستوياتها والجامعات .. والأجناس من صغار وكبار .. ذكور وإناث .. وبلا تعارض من النواحي الجسمية والعقلية والانفعالية والأخلاقية والاجتماعية، وبما يتناسب مع التقدم العلمي.. والتطور المعرفي الإنساني لكل إنسان في المجتمع.

لقد تميّز المنهاج الرباني عن كل ما يمكن أن يضعه البشر من مناهج وضعية .. بعُلوّه وربانيته ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ ﴾ [النساء ١٧٤] لقد خرَّج هذا المنهاج الخالد خير أمة عبر التاريخ عندما تمسّكت به وفهِمتْه وحفِظتْه وتدبّرته.. ونقلها من أمة أمية جاهلية لأمة تقود البشرية .. فإن خير الناس عبر الزمان كله الأنبياء والمرسلين -عليهم أزكى الصلاة والتسليم- ، ثم الصحابة الكرام -رضي الله عنهم أجمعين- .. الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.. حتى اصطفاهم الله ﷻ بصحبة نبيه ﷺ وحمْلهم للدين فكانوا الجيل القرآني الفريد، ولما تركت كتاب ربها تلاوة وتدبّراً وعملاً وتحكيماً وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم.

وإن كان لا يستطيع البحث أن يعدّد أو يذكر مآثر ومناقب وخصائص ذلك الجيل العظيم لكن يمكن القول عن واحدة وهي أنهم أحيوا ليلهم بالقرآن العظيم، واعتنوا به تلاوة وحفظاً، تدبراً وفهماً، علماً وعملاً.. وكان لهم نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ ﴾ [السجدة ٦] أو قوله سبحانه : ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ ﴾ [الزمر ٩].

فكانوا يعظّمون القرآن ، ويُعطونه ما يستحق من الإجلال والقدر والتأمل والتفكر، والنظر والتدبر ؛ لأن الغاية الأساسية من إنزاله هو التدبر ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ [ص٢٨] أما نحن اليوم فقد هجرنا القرآن وتدبره والعمل به.

مشكلة الدراسة.. إن ذلك يقودنا للسؤال الرئيس:

ما ضرورة تدبر القرآن الكريم وأهمية ذلك في تطوير المناهج الفلسطينية؟

ويتفرع من ذلك الأسئلة التالية:

١. ما هو التدبر وحقيقته ، ووسائل تدبر القرآن الكريم؟

٢. ما هي أحوال السلف الصالح مع القرآن ومنهجهم في التدبر؟
٣. كيف نوظّف مناهج التدبر في تطوير المناهج الفلسطينية (بالدراسات القرآنية)؟

وسينهج الباحثان المنهج الوصفي التحليلي للوصول لنتائج البحث.

وللإجابة على تساؤلات الدراسة. ستتكون الدراسة من ثلاثة مباحث

- المبحث الأول:

التدبر .. تعريفه .. حقيقته .. وسائله وأهدافه.

- المبحث الثاني:

أحوال السلف في تدبر القرآن ، وأثر ذلك في نهضة الأمة وخيريتها.

- المبحث الثالث:

تعزيز المنهج التربوي للتدبر في المنهاج الفلسطيني بالجامعات الفلسطينية – رؤية تربوية.

- الخاتمة.
- النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

ما هو التدبر ، وحقيقته ، وسائله ، وأهدافه

أولاً: التدبر في القرآن الكريم :

تدل مادة "دبر" على آخر الشيء ، ومنه دبر الشيء ، أي آخره كأدبار الصلوات.

والتدبر: النظر في أدبار الشيء، والتفكير في عاقبته، وقد استُعمل في كل تأمُّل يقع من الإنسان في حقيقة الشيء أو أجزائه أو سوابقه أو لواحقه أو أعقابه[1].

وجاء في صيغة التفعل، ليدل على تكلف الفعل وحصوله بعد جهد.

والتدبر: حصول النظر في الأمر المتدبر مرة بعد مرة.

وقال البغوي[2] عند قوله : " ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢] يعني أفلا يتفكرون في القرآن والتدبر "هو النظر في آخر الأمر، ودبر كل شيء آخره".

والمراد بالتدبر: هو التأمل والتفكر والنظر في مآلات الآيات ودلالاتها وآثارها، وهو في الحقيقة استخدام للعقل والفكر أثناء القراءة ؛ ليتواطأ اللسان مع القلب والعقل مع التفكير وبهذا نصل إلى الغايات التي من أجلها أُنزل القرآن، وهو ارتباط مباشر بين تلاوة الآية ودلالتها وآثارها دون دخول في تفاصيل الأحكام [3] ويُفهم من ذلك .. جمْع الفكر على تدبّر وتعقّل معانيه .. أو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الآيات ومراميها.

ومع ضعف الأمة في العصور المتأخرة تراجع اهتمامها بالقرآن وانحسر حتى اقتصر على الحفظ والتجويد والتلاوة فقط بلا تدبر ، ولا فهم لمعانيه ومراداته ، وترتب على ذلك ترك العمل به أو التقصير.. فالله – سبحانه– أمرنا بتدبّره وتكفَّل لنا بحفظه فانشغلنا بحفْظه وتركنا تدبّره.. والمراد بالتأكيد: التوازن بين الحفظ والتلاوة والتجويد من جهة وبين الفهم والتدبر، ومن ثَمّ العمل من جهة أخرى.. مع الاهتمام بالحفظ والتجويد.. وليس إهمال التلاوة والتجويد أو الهجر –والعياذ بالله – إن لم يكن التدبر.

---

(١) ينظر: روح المعاني: للألوسي (٥: ٩٢).

(٢) معالم التنزيل: الحسين بن مسعود البغوي (تفسير البغوي)، المجلد الأول، ص٥٦٦.

(٣) القرآن بين القراءة والتدبر والعمل: أ.د. ناصر العمر (برنامج الشريعة والحياة – فضائية الجزيرة (مقابلة وحوار معه الأحد ٢٠١٣/٢/١٠)).

إن القرآن كثيراً ما صرّح بأن الغاية منه التدبر، وإن كانت الغاية عن نزوله أبعد وأعظم من ذلك، ولكن كثيراً ما جعلها القرآن غايته لأهميتها ، فتدبر القرآن هو أساس العمل بالقرآن وتحكيم القرآن وتعظيم القرآن، ولا يمكن تلاقٍ أن تعبر إلى تلك المراحل العملية من التطبيق والعمل والتحاكم وغيرها إلا عبر جسر التدبر[١].

ثانياً: مواضع الأمر بتدبر القرآن :

وقد جاء الأمر بتدبر القرآن في أربعة مواضع.. والعجيب أن آيتين نزلتا في سياق المنافقين وهما قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء ٨٢] وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد ٢٤].

وجاءت آيتان في سياق الكفار وهما قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون ٦٨] وقوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص٢٩].

وليس نزول الآيات في سياق غير المؤمنين يعني أن المؤمنين لا يُطلب منهم التدبر، بل هم مأمورون به وداخلون في الخطاب من باب أولى ؛ لأنهم أهل الانتفاع بتدبر القرآن[٢].

وتحتمل آية سورة (ص) أن يكون المؤمنون داخلون في الأمر بالتدبر، ويشهد له قراءة من قرأ "لتدبُّروا آياته" بالتاء[٣]، بمعنى لتدبّره أنت يا محمد وأتباعك[٤].

وقد عاب الله –سبحانه– على المنافقين الإعراض عن التدبر في القرآن، وفي فهْم معانيه المحكمة، وألفاظه البليغة ، ففي تدبّره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه (**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**) أي لو كان هذا القرآن مختلفاً كما يزعم المشركون والمنافقون لوجدوا فيه تناقضاً كبيراً في أخباره ونظمه ومعانيه ولكنه مُنّزه عن ذلك، فإخباره صدق، ونظمه بليغ، ومعانيه محكمة فدل على أنه تنزيل الحكيم الحميد[٥].

---

(١) أفلا يتدبرون القرآن: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، دار الحضارة، ص٧.

(٢) مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسَّر: د. مساعد بن سليمان الطيار، ص١٨٦.

(٣) ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن: الطبري (٢٣: ١٥٣).

(٤) هي قراءة أبي جعفر المدني من العشرة، وقد نُسبت إلى عاصم .. ينظر تفسير الطبري (المرجع السابق) (٢٣: ١٥٣).

(٥) ينظر المرجع السابق الصفحة نفسها.

وقال البغوي: "[**فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**]: أي تفاوتاً وتناقضاً كثيراً"[١]، "قاله ابن عباس، وقيل : لوجدوا فيه أي: في الإخبار عن الغيب بما كان وبما يكون اختلافاً كثيراً.. لأن ما لا يكون من عند الله فيه تناقض واختلاف"[٢].

كما ذكر الصابوني في تعقيبه على قوله تعالى: ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾** ﴾: أي أنزلنا عليك يا محمد كتاباً عظيماً جليلاً: كثير الخيرات والمنافع الدينية والدنيوية [**لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**] أي أنزلناه ليتدبروا آياته ويتفكروا بما فيها من الأسرار العجيبة والحكم الجليلة، [**وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**] أي ويتعظ بهذا القرآن الكريم أصحاب العقول السليمة.

قال الحسن البصري: والله ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى أن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد أسقطه والله كله، ما يُرى للقرآن عليه أثر في خُلق أو عمل[٣].

وعند قوله تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾** ﴾ الاستفهام توبيخي أي: أفلا يتفهمون القرآن ويتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر ؛ حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات [٤]. وقد عقّب البغوي فقال : " فلا تفهم مواعظ القرآن وأحكامه؛.. أخبرنا محمد بن جرير، حدثنا بشر حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عروة بن هشام عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ : [**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**] فقال شاب من أهل اليمن: بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عمر حتى ولي فاستعان به "[٥].

كما قال ابن كثير: " يقول الله –تعالى– آمراً عباده بتدبر القرآن وناهياً عن الإعراض عنه وعن تفهّم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة: [**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**]: فهذا أمر صريح بالتدبر والأمر للوجوب"[٦].

وذكر ابن كثير عن ابن مسعود ﷺ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ** ﴾ [البقرة: ١٢١] قال : " والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يُحل حلاله ويحرّم حرامه ويقرأ كما أنزله الله "[٧]، وقال الشوكاني :" [**يَتْلُونَهُ**] : يعملون بما فيه ، ولا يكون العمل به إلا بعد العلم والتدبر "[٨].

---

(١) صفوة التفاسير، تفسير القرآن الكريم: محمد علي الصابوني، المجلد الأول، ص٢٩٢.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، مرجع سابق، المجلد الأول، ص٥٦٦.

(٣) صفوة التفاسير: الصابوني، مرجع سابق، مجلد ٣، ص٥٨.

(٤) المرجع السابق، مجلد ٣، ص٢١٢.

(٥) معالم التنزيل: البغوي، مرجع سابق، مجلد ٤، ص١٦٠.

(٦) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، مجلد ٣، ص٣٦٤.

(٧) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، مرجع سابق، مجلد ١، ص٤٠٣.

(٨) فتح القدير: الشوكاني، مجلد ١، ص١٣٥.

وبمتابعة العلماء وأقوالهم السابقة من التدبر يمكن أن نخلص للتالي:

- التدبر هو النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه، ويمكن أن نفهم التدبر بأنه التفكر الشامل الواصل إلى أواخر الدلالات للآيات ، ومراميها البعيدة وآثارها.
- أنّ تقدُّم الأمة وخيريتها كان باهتمامها بكتاب ربها إيماناً وحفظاً وتلاوة وتدبراً وفهماً وعملاً.. وإن تأخرها كان بهجر القرآن أو بعدم تدبره وتطبيقه والعمل به .. والاهتمام بالتلاوة –مع عظيم أجرها– لكن بلا تدبر.. وانصرافها وكأن القرآن العظيم الذي رفع ذِكر الأمة .. جاء للتلاوة في المياتم وافتتاح المناسبات.. أو وضْعه للزينة على الرفوف والجدران.
- وقد عاب الله على المنافقين والكفار عدم تدبر القرآن – وأثبت لهم التلاوة–، وأن نزول الآيات الداعية والآمرة للتدبر – وإن كان في سياق غير المؤمنين.. لا يعني أن المؤمنين لا يُطلب منهم التدبر، بل هم من باب أولى مأمورون به، وداخلون في الخطاب من باب أولى ؛ لأنهم أهل الانتفاع بتدبر القرآن.
- جاء الأمر بتدبر القرآن ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أمر صريح بالتدبر ، والأمر للوجوب.
- أن التدبر يوصل للغايات التي أُنزل من أجلها القرآن ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وأن الغرض الأساس من إنزال القرآن هو التدبر والتذكر .. لا مجرد التلاوة فقط على عِظم أجرها.

ثالثاً: أهمية التدبر :

١. يحقّق التدبر الامتثال لأمر الله –سبحانه– .. فهو أمرنا بالتدبر سبحانه وعدم هجرانه والإعراض عنه، كما يحقّق الغاية المقصودة من وراء إنزال القرآن.

قال ابن كثير: " يقول الله –تعالى– آمراً عباده بتدبر القرآن ، وناهياً لهم عن الإعراض عنه ، وعن تفهُّم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ فهذا أمر صريح بالتدبر للوجوب"(١) وقال أيضاً: " قال الله –تعالى– ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٠] .

وترْك تدبره وتفهّمه من هجرانه"(٢).

وقال ابن القيم : " هجر القرآن أنواع .. الرابع: هجْر تدبره وتفهّمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه"(١).. ففي التدبر امتثال لأمر الله بالتدبر وعدم الهجران.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، مجلد ٣، ص٣٦٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، مرجع سابق، مجلد ٦/ص١٠٨.

والامتثال لأمر الله في التدبر كما ذكر شيخ المفسرين الإمام الطبري: أن المراد بتدبر كتاب الله: "تدبّر حُجج الله التي في القرآن ، وما شُرع فيه من الشرائع للاتعاظ والعمل به"[٢].

وذكره الشيخ محمد أمين الشنقيطي بقوله : " تدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفّحها، وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها"[٣].

فالتدبر هو سبب الإيمان والعمل ؛ لأنه يحتاج إلى النظر في آيات الله، والتفكر فيها وتفهّمها، وإدراك ما فيها ؛ وذلك من أجل الاتعاظ والعمل.. وإلا كيف سيكون العمل بالقرآن دون تدبّره وفهْم مراميه وأغراضه ؛ لأننا مأمورون بالعمل بما فيه من الأوامر والنواهي والاعتبار.. ولا يكون ذلك إلا بالتدبر.

٢. يحقّق التدبر منهج السنة النبوية ؛ لأن التدبر هو منهج النبي ﷺ :

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده "[٤] فالسكينة والرحمة والذكر مقابل التلاوة المقرونة بالدراية والتدبر.

ونشاهد في واقعنا التركيز على التلاوة دون التدبر.

وروى حذيفة ﷺ : أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة فكان يقرأ مسترسلاً ، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مرّ بتعوُّذ تعوّذ[٥]. فالتسبيح والسؤال والتعوذ ثمرة طبيعية وتطبيق لتدبره عليه الصلاة والسلام.

كما نجده عليه الصلاة والسلام يهتم بالتدبر على التلاوة أحياناً أو كثرتها ، فيقرأ آية واحدة في ليلة كاملة، فعن أبي ذر ﷺ قال: "صلى رسول الله ﷺ ليله فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة ١١٨]" [٦].

٣. أن تدبر القرآن ضرورة، وواجب على كل مسلم:

"لأنه مصدر عزّنا، ولأنه منهج النبي ﷺ ، كما قال الإمام مالك : فإنه لن يصلح آخر هذه الأمة، إلا بما صلح به أولها " [١]، وهل صلح أولها إلا بالكتاب والسنة.

---

(١) بدائع التفسير، ابن القيم، مجلد ٢، ص٢٩٢.

(٢) "تفسير الإمام الطبري": (١٥٣/٢٣).

(٣) أضواء البيان: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٤٢٩/٧).

(٤) رواه مسلم، (ح/٢٦٩٩).

(٥) رواه مسلم، (ح/٧٧٢).

(٦) رواه أحمد، (ح/٢٠٣٦٥).

فالتدبر في معانيهما هو السبيل للإصلاح بهما ، وهو السبيل لربط واقع الأمة بالكتاب والسنة ، وكما يقول الرسول ﷺ : "تركت فيكم لن تضلوا ما تمسكتم به كتاب الله وسنة نبيه"[٢]، ولا تمسك بلا فهْم وتدبّر وهما سبيل الفقه في الدين، وقد دعا النبي ﷺ ربه لابن عباس –رضي الله عنهما– أن يعلّمه التأويل وأن يفقّهه في الدين، فكان حبر الأمة وترجمان القرآن .

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: "من يرد الله به خيراً يفقهّه في الدين"[٣] ، وتدبر القرآن من أعظم سبل الفقه في الدين"[٤].

٤. يحقق التدبر الطمأنينة والشفاء والتثبيت:

يقول الله تعالى﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد ٢٨] ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود ١٢٠] ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء ٨٢].

ولن تتحقق هذه الطمأنينة وهذا التثبيت وهذه الرحمة وهذا الشفاء، إلا بالاستماع والإنصات والتدبر[٥] ، ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف ٢٠٤].

٥. التدبر من أعظم الوسائل في بيان الفرقان بين الحق والباطل[٦]:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال ٢٩]

٦. تدبر القرآن هو العاصم من شبهات الطاغين في القرآن الكريم[١]:

---

(١) ليدبروا آياته: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، الجزء الأول، ص١٠، وأورد سماحته في الهامش: "ذكر القاضي عياض في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٨٨/٢ نصاً للإمام مالك نقله عن كتاب "المبسوط" للقاضي إسماعيل بن اسحاق الجهضمي المالكي (ت٢٨٢هـ) يتضمن هذه العبارة بهذه الصيغة: ولا يُصلحُ آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها".

(٢) الموطأ (٣٣٣٨).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٧١) ٢٥/١ ، ومسلم برقم (١٠٣٧) ٧١٨/٢ .

(٤) ليدبروا آياته، أ.د. ناصر العمر، مرجع سابق، الجزء الأول، ص١٠.

(٥) المرجع السابق، الصفحة ١١.

(٦) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

يعطي تدبر الكتاب أهمية عظيمة ؛ إذ به يعصم الله –سبحانه وتعالى– العبد من الانخداع بشبهات الطاغين في القرآن الكريم، فيعلم أنها أوهى من نسْج العنكبوت، وبهذا نراها لا تروج إلا على من قلّ علمه بالقرآن الكريم ، وضعف أو انعدم تدبره لآياته.

رابعاً: وسائل التدبر :

ذكر التويجري[٢] عدة وسائل لتدبر كتاب الله وهي "وسائل تذكيرية" نذكرها بتصرف:

- **الوسيلة الأولى: معرفة معنى التدبر.**

لأن معرفة المعاني يعين على المعرفة والفهم، وأن التدبر يحتاج إلى النظر في آيات الله، والتفكر فيها، وتفهمها، وإدراك ما فيها، وذلك من أجل الاتعاظ والعمل.

- **الوسيلة الثانية: استشعار أهمية التدبر.**

وذلك باستحضار الأمور الآتية:

- أن التدبر هو المقصود الأعظم من إنزال كتاب الله إلينا.
- بركة القرآن حيث وصفه الله بأوصاف عظيمة.. إنه كتاب عزيز ، ومبارك ، ونور ، وفرقان ورحمة ، وبرهان.
- أن الله جعل القلب حاسة لتدبر كتابه ، وفراغ القلب لا يسده إلا ذكر الله والتلذذ به.
- ورود آيات كثيرة للثناء على من تدبر القرآن.
- ذمّ القرآن لمن ترك التدبر.
- معرفة أن التدبر من وسائل التفقه في الدين ومعرفة الحلال والحرام، حيث يتبين للمتدبر كثير من الأحكام الفقهية المتعلقة بالحياة، فيعينه ذلك على التزام أمر الله وشرعه في كافة أمور الحياة.

- **الوسيلة الثالثة: تحصيل الأسباب القلبية الباعثة على التدبر.**

وهي كثيرة ومن أهمها :

١. الإيمان بالله ﷻ ومحبته وتعظيمه.
٢. الإخلاص في طلب التدبر.
٣. طهارة القلب وخشوعه.

---

(١) أفلا يتدبرون القرآن: أ.د. ناصر العمر، مرجع سابق، ص١٦٧.

(٢) وسائل تدبر كتاب الله: عبد اللطيف بن عبد الله التويجري (هدى للناس – مجلة البيان) الرياض ١٤٣٢، ص١٦٧-١٩٢.

٤. تيقّن أن الله ميسّر ذلك لطالبه.

- **الوسيلة الرابعة: تحصيل الأسباب العملية الباعثة على التدبر.**

ومنها:

- الترتيل والتغني بالقراءة.
- القراءة في التهجد بالليل.
- سلامة التلاوة ومراعاة التجويد.
- الاستعاذة من الشيطان الرجيم.
- الإنصات عند سماع القرآن.
- المداومة على قراءة القرآن.
- تكرير الآيات.
- **فهم الآيات والمعاني، ومما يعين على ذلك :**
  - حُسن الاستماع.
  - سؤال أهل العمل والذكر.
  - القراءة في كتب المفسرين.
  - معايشة الآيات والمعاني.
  - تعلم لغة العرب.

- **الوسيلة الخامسة: الحذر من الوقوع في الأمور التي تصرف عن التدبر.**

ومن أهمها:

- الإصرار على البغي والمعاصي وأمراض القلوب.
- الانشغال بالحياة الدنيا وزينتها.
- قراءة القرآن على حرف.
- الغفلة والإعراض.
- الحرص على تتبع شواذ القراءات.
- أن يكون هَمّ القارئ إتمام السورة دون التدبر والفهم.
- الانشغال بتتبع المبهمات التي تصرف عن التدبر النافع.
- ترك التدبر من المتمكن بحجة التورع.

وينهي التويجري بعد ذكر وسائله المختصرة بالقول : " تبقى وسيلة مقاصدية عظيمة وهي: معرفة ثمار ونتائج تدبر كتاب الله ؛ وذلك لأن فيها المفتاح العظيم لكل خير وصلاح في حياة الأفراد والمجتمعات، ولها نتائج مبهرة في جميع المجالات الإيمانية، والتربوية، والأمنية والنفسية "[1].

ثم يردف بالقول : " فإن أردت –يا أخي المبارك– زيادة الإيمان واليقين، وحصول البركة والأمن، والهداية والتوفيق، ورقة القلب والخشوع، والراحة النفسية، وحُسن الخلق، وشفاء البدن والقلب، والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة فالزم يديك بهذا الحبل المتين، وهو تدبّر كتاب الله العظيم، وعِش في ظلاله، وانعم في رحابه، فهذه –والله– هي السعادة الحقيقية والنجاة الأبدية، ولقد أحسن الإمام ابن القيم حين قال: "القرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهَّل ولا يُوفَّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل المتداوى به، ووضْعه على دائه بصدْق وإيمان ، وقبول تام ، واعتقاد جازم واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبداً، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطّعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحماية منه إن رزقه الله فهماً في كتابه"[2].

خامساً: موانع التدبر :

ذكر الشيخ العمر أن موانع التدبر كثيرة ومن أهمها[3]:

١. أول موانع تدبر القرآن أمراض القلوب:

من الرياء والحسد والغِل والحقد، ولهذه الأدواء أثر عظيم، يحجب القلب ويمنعه التلذذ بالقرآن والتدبر لآياته.

٢. الإعراض عن تلاوة القرآن:

فالتلاوة مفتاح التدبر ومقدّمته، وهذا الإعراض قد يكون بسبب انشغال المرء بدنياه عن آخرته، وقد يكون بسبب انشغاله بشيء من أمور الآخرة كطلب العلم والدعوة إلى الله وغير ذلك، ومهما كانت الأسباب فلا شك أن من أعرَض عن تلاوة القرآن الكريم قد غبن نفسه وحرمها من خير كثير.

٣. الانشغال بالتلاوة أو الحفظ عن التدبر:

بحيث يكون كل هم الإنسان أن يستكثر من التلاوة أو الحفظ دون أن يُلقي بالاً لتدبر ما يقرأ.

٤. ما يدّعيه بعضهم من أن فهْم القرآن الكريم وتدبّره لا يقدر عليه كل أحد:

---

(١) وسائل تدبر كتاب الله .. التويجري، المرجع السابق، ص١٩١.

(٢) زاد المعاد (٣٥٢/٤).

(٣) أفلا يتدبرون القرآن: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، مرجع سابق، ص١٥٧-١٦٤ بتصرف.

وإنما هو للمتخصصين فقط، ولا شك أن هذا تلبيس من الشيطان، وفيه حق وباطل، أما الباطل فهو أن هذا ليس في كل القرآن، فإن فيه ما هو واضح جليّ لكل أحد.

٥. ما يدّعيه بعض الناس من خطورة تدبر القرآن الكريم:

"يقول الوزير العابد العادل أبو هبيرة الحنبلي –رحمه الله– : " من مكايد الشيطان: تنفيره عباد الله من تدبر القرآن ؛ لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول : هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان : أنا لا أتكلم في القرآن تورّعاً"، ثم يضيف الشيخ العمر –حفظه الله– : "أما من يتدبر القرآن طالباً الهدى منه تبين له طريق الحق، وهل أُنزل القرآن إلا ليُتدبر ، فكيف يضل قوم تدبّروا ما أرسل الله به رسله إليهم ، واتبعوا ظاهر ما جاءهم من ربهم الذي خاطبهم بما يعقلون، وأرشدهم إلى ما يمكِّنهم"[١].

سادساً: شروط التدبر في القرآن :

ذكر العمر[٢] أن هناك صوارف أو عوائق تصرف القارئ عن التدبر.. منها صوارف أصيلة كالظلم، الكبر، التجبّر على الناس، فقْدان الإيمان قبل ذلك..

وإن هناك صوارف عارضة كانصراف القارئ بقضية معينة أو أمر طارئ..

ومما يعين على تدبر القرآن القناعة بأهميته –كما أسلفنا– وأنه واجب ومُهم ، وسر السعادة في الحياة، كذلك قوة الإيمان وما يورثه من نور في القلب.. والمطعم الحلال.. والابتعاد عن الطغيان والظلم والصدق مع الله.. ادعوا الله وأنتم موقنون في الإجابة.

كما بيّن الكيلاني أنه لكي يكون التدبر في القرآن سليماً ومفيداً لابد من توفر مجموعة من الشروط وهي[٣] باختصار:

١. الملاحظة العلمية الدقيقة:

إذ أن قسطاً كبيراً من التقدم العلمي الحديث يعود إلى تمتّع الذين ساهموا فيه بمهارات الملاحظة وحُسن استعمال أبصارهم وأسماعهم ثم تركيز أفكارهم ؛ ولذلك كان التأكيد القرآني على مسؤولية الإنسان عن سمعه وبصره وفؤاده ؛ لأن مهارات الملاحظة الدقيقة شرط أساس في سلامة التدبر في القرآن ومقدمة للوقوف على لطائف معانيه.

٢. التروي والأناة:

---

(١) انظر: أفلا يتدبرون القرآن: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، من ص١٥٧-١٦٤، بتصرف.

(٢) القرآن بين القراءة والتدبر والعمل: أ.د. ناصر العمر في لقاء الشريعة والحياة، مرجع سابق.

(٣) مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها: د. ماجد عرسان الكيلاني، ص٣٤٤ بتصرف.

ويُراعى في التدبر التدرج وعدم الاستعجال ؛ لأن في التدرج مراعاة لقوانين التعلم، وهو ما كان عليه تلامذة الرسول ﷺ ، فقد أتى رجل زيد بن ثابت فقال: كيف ترى قراءة القرآن في سبع؟ قال: ذلك حسن، ولئن أقرأه في نصف شهر أو عشرين أحب إليَّ. وسلني لم ذلك؟ قال: فإني أسألك! قال زيد: لكي أتدبر وأقف عليه[1].

ولقد تعلم عمر بن الخطاب ﷺ سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة، وعندما ختمها نحر جزوراً، أما ابنه عبد الله فقد مكث على نفس السورة ثمان سنوات[2].

٣. رِفعة الهدف وصِدقه:

يراعى في التدبر البحث عن الحقيقة وبلوغ "اليقين" ؛ لأن مستوى قراءة التدبر يتناسب مع الهدف الذي كانت القراءة من أجله، والذي يقرر مستوى الفهم في القراءة هو تدرّجه وصِدق الهدف ورفعته، وأعلى مستويات أهداف القراءة ما كان "باسم الله" ؛ ولذلك افتُتحت كل سورة بالبسملة ، وكان الأمر بالاستعاذة بالله من الشيطان عند القراءة ؛ لأن الأفكار والظنون والثقافات المنحرفة عن قصد وعمد- تهبط بالقارئ إلى أهداف دنيا تحول بينه وبين تدبر الآيات التي يقرؤها.

٤. عدم التسرع في تقبل واردات الفهم:

خلال التدبر تتوارد الأفكار وأنواع الفهم ويكون لها في بدايتها بريق خاص لا يقاوم.

وهنا يجب الحذر من التسرع في تقبل أفكار الفهم الحاصل إلا بعد التأكد من خلّوها من الفهم الذي يصطدم بأصول التوحيد ويتعارض معه، والفهم الشخصي الذي يخدم تحيزات الإنسان ويبرّرها، سواء في حالات التحيز القائم على الحب أو التحيز القائم على الكره.

٥. الرجوع إلى المصادر اللغوية والأحاديث الصحيحة والتفاسير الموثوقة مع التمكن من مناهج البحث فيها جميعاً.

٦. الثقة بالنفس والاجتهاد ما أمكن:

إذ لا يجوز للمسلم وهو يتدبر في القرآن أن يستصغر ما يعلّمه الله، ولا يذوب في أفهام الآخرين وتفاسيرهم، صحيح أن تفاسير السابقين تلقي الضوء على الطريق، ولكنها لا يجوز أن تقفل التفكير وتصيب العقل بالجمود والتحجر، وعلى الإنسان أن يربي عقله على الإبداع في حدود الدين ، وليس خارجاً عنه ؛ حتى لا يقع في البدعة المنهيّ عنها في الشرع.

---

(١) الجامع لشعب الإيمان: البيهقي، ح٥، ص٩.

(٢) الجامع لشعب الإيمان، البيهقي، ج٤، ص٥١١-٥١٢.

المبحث الثاني

أحوال السلف في تدبر القرآن الكريم (قراءة وتدبراً وعملاً)
وأثر ذلك في نهضة الأمة وخيريتها
(كيف أصبح ذلك الجيل جيلاً قرآنياً فريداً)

من المؤكد أنه كان للقرآن الكريم أبلغ الأثر في نفوس الصحابة –رضي الله عنهم جميعاً–، فلم يكن تلقّيهم له بأفواههم فحسب، بل استقر في قلوبهم، ورسخ في نفوسهم، وسما بحياتهم نحو آفاق العبودية لله وحده لا شريك له.. فاختارهم الله –سبحانه– لصحبة حبيبه وسيد ولد آدم ﷺ . فكانوا أهل النُّصح للقرآن الكريم بتعظيمه، وإعطائه ما يستحق من القدر والإجلال والأدب. وبذل الجهد والطاقة في تحقيق المقصد من إنزاله.. ترى كيف تعامل ذلك الجيل القرآني مع القرآن من حيث تدبره .. وتعلمه وتعظيم أهله.. وتطبيقه؟ فأصبحوا كذلك:

(أ) بتدبر القرآن:

فكان ذلك الجيل أهل التدبر والتفكر والتذكر .. ونورد أمثله على سبيل المثال لا الحصر.

عن علي ﷺ : ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا في علم ليس فيه تفهم، ولا في قراءة ليس فيها تدبر! [(١)] .

وقال ابن عباس –رضي الله عنهما– : لأن أقرأ (إذا زلزلت) و(القارعة) أتدبرهما، أحب إلي من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً[(٢)].

وعن زيد بن ثابت ﷺ : لأن اقرأ القرآن في شهر أحب إلي من أن أقرأه في خمس عشرة، ولأن أقرأه في خمس عشرة أحب إلي من أن أقرأه في عشر، ولأن أقرأه في عشر أحب من أن أقرأه في سبع: أقف وأدعو[(٣)].

وذلك أن الأناة في القراءة تتيح الفرصة للتأمل والتدبر، وهو الغاية المنشودة من القراءة [(٤)]. والقرآن كما رُوى في الحديث : "لا تنقضي عجائبه.. ولا يَخْلَق على كثرة الرد، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم"[(٥)].

---

(١) فضائل القرآن لابن الضريس (ص٤٩) .

(٢) ذكره أبو طالب المكي في القوت، ونقله عنه الغزالي الإتحاف شرح الإحياء للزبيدي (٤/٤٧٨).

(٣) ذكره الزبيدي في الإتحاف (٤/٤٧٨)، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف.

(٤) كيف نتعامل مع القرآن العظيم: د. يوسف القرضاوي، ط٤، دار الشروق، ص١٧٠.

(٥) رواه الترمذي عن علي رضي الله عنه برقم (٢٩٠٨).

والمتأمل في القرآن يجده زاخراً بجوامع الكلم، وجواهر الحكم، وكنوز المعارف، وحقائق الوجود، وأسرار الحياة وعوالم الغيب، وذخائر القيم، وروائع الأحكام، وعجائب التوجيه، وغرائب الأمثال وبينات الآيات، وسواطع البراهين، وبالغ النذر ؛ ولذا قالوا: إن في القرآن علم الأولين والآخرين.. وإنما تُدرك هذه الأمور بطول التأمل والتدبر، لا بالخطف والاستعجال ، وإذا لم يتمكن القارئ من التدبر في الآية إلا بترديدها، فليرددها، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ وصحابيه والصالحون من سلف الأمة: يردّدون بعض الآيات تدبراً وتأثراً [1].

وسبق وأن مرت رواية أبي ذر رضي الله عنه : قام رسول الله ﷺ بنا ليلة بآية ، فقام يرددها وهي ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة ١١٨].

وقام تميم الداري رضي الله عنه بآية يكررها حتى أصبح أوكاد، وهي قوله تعالى[2]:﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية ٢١].

وقد جاء نحو ذلك من ترديد الآيات عن ابن مسعود وعن عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر رضي الله عنهم [3].

روى إبراهيم عن علقمة قال: صليت إلى جنب عبد الله (يعني ابن مسعود) فافتتح سورة (طه) فلما بلغ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه ١١٤] قال: (رب زدني علماً) (رب زدني علماً)[4].

وعن عروة بن الزبير قال: دخلت على أسماء بنت أبي بكر (يعني أمه) وهي تصلي، تقرأ هذه الآية: ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور: ٢٧] فقمت: فلما طال على ذهبت إلى السوق، ثم رجعت، وهي مكانها، وهي تكرر الصلاة[5] يعني الآية.

ورُوى نحوه يعني الآية عن عائشة –رضي الله عنها–[6].

ورُوي أن عامر بن عبد قيس قرأ ليلة سورة (المؤمن) وهي المعروفة بسورة (غافر) فلما انتهى إلى هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ [غافر ١٨] لم يزل يرددها حتى أصبح[7].

"وقد ورد نحو ذلك عن عدد من التابعين، وعن سعيد بن جبير والربيع بن خثيم وغيرهما".

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٧٠.

(٢) رواه أبو عبيد في الفضائل، وابن أبي داود في الشريعة والطبراني في الدعاء (الإتحاف ٥٠٦/٤).

(٣) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، مرجع سابق، ص١٧١.

(٤) رواه ابن أبي داود بسند صحيح عن إبراهيم. انظر الإتحاف ٥٠٦/٤.

(٥) رواه أحمد ورجاله ثقات من رواه الصحيحين. المصدر السابق.

(٦) رواه ابن أبي داود عن القاسم بن محمد. المصدر نفسه، ص٥٠٧.

(٧) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن عن امرأة من آل عامر – انظر (الإتحاف) مصدر سابق.

"وقال بعضهم: إني لافتتح السورة، فيوقفني بعض ما أشهد فيها من الفراغ منها، حتى يطلع الصبح".
"وكان بعضهم يقول : كل آية لا أفهمها، ولا يكون قلبي فيها، لا أُعدّ لها ثواباً"[(١)]، وعن أبي سليمان الداراني قال: " إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال، وخمس ليال، ولولا أني أقطع الفكر فيها، ما جاوزتها إلى غيرها" [(٢)]، ولم يأذن عليه السلام لعبد الله بن عمرو بن العاص بقراءة القرآن في أقل من ثلاث ليال وقال: لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث [(٣)]، ولم يقتصر التركيز على التدبر وحده في الانتقال من آيات لأخرى أثناء التلاوة، بل كان هذا المنهاج التربوي في الحفظ والتثبيت.. بحيث يتلازم العلم والمعنى والعمل.

كما يُلاحظ أن ابن عمر قال: تعلَّم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزوراً [(٤)]، كما بيّنا بيّنا قبل ذلك ، والمؤكد أن طول المدة ليس عجزاً من عمر ﷺ ولا انشغالاً عن القرآن ، لكنه التدبر.

أما الخوارج الذين يقرأون القرآن، لكنه لا يجاوز تراقيهم، فكانوا وبالاً على الأمة .

وقال الحسن أيضاً: نزل القرآن ليُتدبّر ويُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً [(٥)]، أي أن عمل الناس أصبح تلاوة القرآن فقط بلا تدبر ولا عمل به.

كما لم تكن مدرسة النبوة تعمل عند لقاء المسلمين لرسولهم ﷺ فحسب، وإنما كانت تظل عاملة حتى حين ينقلب المسلمون إلى بيوتهم أو حياتهم الخاصة، كانوا يقومون على ما تعلموه وفقهوه أثناء الصحبة، كانوا يقومون الليل بالقرآن، أو يجلسون في المسجد يتلون كتاب الله ويذكرون الله ويدعونه، أو كانت تضمهم مجالسهم يذكّر بعضهم بعضاً ، ولم يكن يمنعهم الكسب والسعي في الحياة عن صحبة نبيهم، أو عن مجالسهم ، أو عن مصاحبة منهاج الله.

وكان أصحاب رسول الله يبيتون مع كتاب الله –سبحانه– ، وعندما قُتل السبعون من الصحابة الذين كانوا يبيتون مع كتاب الله وكان يقال لهم القراء ظلت مدرسة النبوة تُخرِّج قراء وعلماء[(٦)] كما كان أهل الصفة –من أصحاب رسول الله– وهم لا منازل لهم.. ينامون على عهد رسول الله ﷺ في المسجد ويظلون ، وكانوا مع إقامتهم هذه في الصفّة شديدي الصحبة لرسول الله، فكانوا أقرب إلى الأخذ والسماع، وإلى التدبر والتذكر، حتى إذا خَلَوا تذكّروا وتذاكروا.

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، مرجع سابق، ص١٧١.

(٢) فضائل القرآن، انظر الإتحاف مصدر سابق (٤/٥٠٦-٥٠٧).

(٣) رواه الدارمي والترمذي برقم ٢٨٧٠ وصححه.

(٤) نزهة الفضلاء، تهذيب سير أعلام النبلاء (١/٣٥/أ).

(٥) مدارج السالكين (١/٤٨٥).

(٦) دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية، عدنان علي رضا النحوي، ص٢١١.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن كليب بن شهاب، قال: سمع علي بن أبي طالب ﷺ ضجّة في المسجد يقرءون القرآن ويقرئونه فقال: طوبى لهؤلاء! هؤلاء كانوا أحب الناس إلى رسول الله ﷺ[1].

ورُوي عن أبي هريرة ﷺ أنه مرّ بسوق المدينة فوقف عليها، فقال: "يا أهل السوق ما أعجزكم؟" قالوا: "وما ذاك يا أبا هريرة؟" قال: "ذاك ميراث رسول الله ﷺ يُقسم وأنتم ههنا: ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا وأين هو ؟ قال: "في المسجد" فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم: "ما بالكم؟" فقالوا: "يا أبا هريرة قد أتينا المسجد فلم نر فيه شيئاً يقسم!" فقال أبو هريرة: "وما رأيتم في المسجد أحداً" قالوا: بلى رأينا قوماً يصلون وقوفاً يقرءون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ[2].

فاستمر الصحابة بعد رسول الله ﷺ يعيشون مع منهاج الله، كما كانوا يعيشون أيام رسولهم: دراسة وتدبراً، وعملاً وتطبيقاً، وانتشروا في الأرض ينقلون هذا المنهج النبوي بمعظم خصائصه وميزاته، ينشرون النور والخير والعلم والبركة، وتابع ذلك أئمة وعلماء إلى أن وهن حال المسلمين والعلماء الذين يتخرجون من هذه المدرسة.. حتى أخذت معالمها تختلط. وملامحها تبهت وطغت أهواء ونزعات.

(ب) تعظيم القرآن .. واستشعار عظمة مُنزله –سبحانه– والخشوع والبكاء عند تلاوته :

كان أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان يعظِّمون القرآن .. ويعيشونه حياً ويتأدبون بآداب التلاوة.. من خشوع وبكاء وحزن ويستشعرون قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر: ٢١].

وهذا مطلوب لمن يقرأ القرآن، فإن لم يجد له قلباً يخشع، ولا عيناً تدمع، ولا نفساً تحزن فليتكلف ذلك وليحاوله ما استطاع.. ذلك ليتشبه بأولئك الصالحين.. عند التلاوة أو الاستماع يقول تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا] الآية[3].

قال ابن كثير: " نهى الله –تعالى– المؤمنين أن يتشبّهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد، بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء

---

(١) دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية، عدنان علي رضا النحوي مرجع سابق، ص٢١٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تفسير ابن كثير (١٩/٨) .

ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد "[1]، وكانت القساوة بسبب نقص العهود كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣]. وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣] وهكذا كان حال أصحاب رسول الله ومن تبعهم فوصفهم تبارك وتعالى (الذين أوتوا العلم) بالخشوع والبكاء عند استماع القرآن فقال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

فهكذا كان ذلك الجيل وتجاوبه مع القرآن: خرور لله وسجود، وذِكر لله ودعاء، وبكاء وزيادة خشوع.

بل مدح القرآن آخرين من النصارى عند سماعهم للقرآن ، فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [المائدة ٨٣-٨٤].

وعن ابن مسعود ﷺ أنه قرأ مع النبي ﷺ سورة النساء وفيه: فإذا عيناه تذرفان[2].

وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: (اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا)[3] أي تكلفوا البكاء.

وعن ابن عباس: " إذا قرأتم سجدة (سبحان) يعني آخر سورة الإسراء، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن لم تبكِ عين أحدكم فليبك قلبه " [4] وبكاء القلب : حزنه وخشيته . قال الإمام الغزالي: " وإنما طريق تكلّف البكاء أن يُحضر قلبه الحزن، فمن الحزن ينشأ البكاء ، قال النبي ﷺ : إن القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فتحازنوا"[5].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير، ج٤/٣١٠.

(٢) متفق عليه (اللؤلؤ والمرجان: ٦٤٣).

(٣) رواه ابن ماجة بإسناد جيد وهو فيه برقم (٤١٩٦).

(٤) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٧٣.

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية بسند ضعيف، وأبو يعلى عن سعد.

وذلك بأن يتأمل القارئ ما في القرآن من التهديد والزجر والوعيد.. والمواثيق والعهود.. ثم يتأمل المرء تقصيره عن تلك الأوامر والزواجر فيحزن لذلك ويبكي ، فإن لم يحضره حزن وبكاء، كما يحضر أصحاب القلوب الصافية.. فليبكِ على فقدان الحزن والبكاء فإن ذلك من أعظم المصائب[١].

وكان أولئك الصالحون يخشعون ويتدربون في صلاتهم ويستحضرون عظمة الله –سبحانه– ، رُوي عن عمر ﷺ أنه حدَّث: "كان رسول الله ﷺ لا يزال يسمُر عند أبي بكر الليلة كذلك في الأمر من أمر المسلمين، وأنه سمر عنده ذات ليلة وأنا معه، فخرج رسول الله ﷺ وخرجنا معه فإذا رجل قائم يصلي في المسجد، فقام رسول الله ﷺ يستمع قراءته، فلما كدنا أن نعرفه، قال رسول الله ﷺ : "من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أُنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد". قال: ثم جلس الرجل يدعو، فجعل رسول الله يقول له: "سَلْ تعطه، سل تعطه"، قال عمر: والله لأغدونّ إليه فلأبشرنّه، قال : فغدوت إليه لأبشّره، فوجدت أبا بكر قد سبقني إليه فبشّره، ولا والله ما سابقته إلى خير قط إلا سبقني إليه[٢].

انظر كيف كان أصحاب رسول الله يعيشون القرآن رطباً حياً.. يستشعرون معانيه ويستحضرون هيبته ووعْده ووعيده.. وإذا كان قائدهم وقدوتهم عليه الصلاة والسلام كما وصفته السيدة عائشة –رضي الله عنها– : " كان خُلقه القرآن"[٣] .. فكان أتباعه مصاحف تمشي على الأرض.. فغيّروها وزرعوا النور والخير في ربوعها قاطبة.

(ج) بالعمل به وتطبيقه:

لقد اتخذ الصحابة ﷺ القرآن منهاجاً لحياتهم، منه يستمدون ، وإليه يرجعون ، وعليه يعتمدون.. وكلما نزل شيء منه سارعوا إلى تنفيذه والعمل به، دون إبطاء أو تلكؤ أو تردد. وكان هذا مما يميّز هذا الجيل الأول ، جيل الصحابة ، الجيل القرآني الفريد ، كما قال الشهيد سيد قطب –رحمه الله– : " فلم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع، بل يتلقى أحدهم القرآن ليعمل به فور سماعه، وهذا ما شهدت به وقائع شتى "[٤].

ويقول ابن مسعود ﷺ : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن[٥].

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، المرجع السابق، ص١٧٣.

(٢) أخرجه أحمد (٣٠٩/١) رقم ١٧٥.

٣ – أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٠٧/٢ ، وعبد الله بن وهب في " الجامع في تفسير القرآن " (١٥٦/٢) رقم (٣٢٢) ، وابن أبي شيبة ٢١٤/١٤ ، والحاكم ٤٩٩/٢ ، وابن جرير ١٥٠/٢٣ ، ١٥١.

(٤) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، مرجع سابق، ص٤١٢.

(٥) تفسير الطبري (٦٠/١، ٨١) وتفسير ابن كثير (١٠/١).

ويقول أبو عبد الرحمن السلمي (من كبار التابعين): "حدثنا الذين يقرئوننا : عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل؛ قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً"[(١)].

ويقول رحمه الله: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم تتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها [(٢)].

وكان للسلف تفاعل عجيب مع آيات القرآن ؛ لأن قلوبهم مفتوحة لها، فتؤثِّر فيهم كما يتأثّر المحبّ بكلام حبيبه، ويتلقونها كما يتلقى الجندي أوامر قائده، ويستجيبون لها كما يستجيب العبد لسيده، لقد كانت نفوسهم ملؤها التحفز، والخوف والوجل، والحب والرجاء والتعظم لما تقرّره نصوص الآيات، لقد كان لهم مواقف يطول لها العجب تجد هذا التفاعل الحي [(٣)].. من تلك المواقف على سبيل الأمثلة:

قال أبو هريرة ﷺ : لما نزلت : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣] بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً فقال النبي ﷺ : (قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصيب المسلم كفارة، حتى النكبة يكباها، والشوكة يشاكها)[(٤)].

ولما نزل قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٢] قال أبو طلحة ﷺ: "إن أحب أموالي بيرحاء ، وإنها صدقة لله، أرجو بِرّها وذُخرها عند الله"[(٥)].

وقال زيد بن حارثة ﷺ : " اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إلي من فرسي هذه، فجاء بها إلى النبي ﷺ فقال: هذه في سبيل الله "[(٦)].

وليس بالإمكان حصر هذه النماذج الرائعة للتطبيق لأوامر الله ورسوله ؛ لأن الأمر لم يكن محصوراً في عدد من الصحابة –رضي الله عنهم جميعاً– ، بل في المجتمع القرآني كله رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً، فعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: والله، ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً بكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أُنزلت سورة النور ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ ﴾ [النور: ٣١] "انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابة، فما

---

(١) تفسير الطبري (٢٨/١) وتفسير ابن كثير (١٠/١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٣٩/١).

(٣) أحوال السلف مع القرآن: سلمان بن عمر السنيدي، هدى للناس، مجلة البيان، مرجع سابق، ص٦٤.

(٤) رواه مسلم (٦٧٣٤).

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٥٨) ومسلم (٩٩٨) وأحمد كما ذكر ابن كثير ج٣٨١/١ (بأكثر من لفظ).

(٦) تفسير الطبري (٥٩٢/٦).

منهن امرأة إلا قامت إلى مِرطها[1] المرحّل[2] فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان[3]. وكان ذلك في كل مجالات الحياة .

"فمن روائع الاستجابة للقرآن: ما سطّره التاريخ لمواقف الأصحاب ﷺ حين ناداهم القرآن للجهاد بمثل قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١] فلقد وجدنا الرجل وابنه يتنافسان على الغزو حتى يقترع الرجل وابنه (مثل سعد بن خيثمة وأبيه): أيهما يخرج للجهاد؟ وأيهما يبقى لشؤون البيت والأسرة؟ فإذا فاز الابن بالقرعة قال له أبوه: آثرني بها يا بني! فيقول له: يا أبت! إنها الجنة ولو كان شيئاً غير ذلك لآثرتك.

"ونجد شيخاً كعمرو بن الجموح الأنصاري يأبى إلا أن يخرج للمشاركة في غزوة أحد مع أن الله عذره في كتابه حين قال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧] ومع أن له أربعة بنين يشهدون المعارك خلفاً له مع رسول الله ﷺ ، ولكنه يسعى وراء أمنية غالية، هي الشهادة، وقد حقّقها الله له.

ويروي ابن عباس عن أبي طلحة الأنصاري في قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة: ٤١] قال شباناً وكهولاً، ما سمع الله عذر أحد، فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات رضي الله عنه"[4].

وذكر القرطبي في تفسير آية [انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً] من سورة التوبة: فيما رواه ابن مسعود عن أبي طلحة الأنصاري في قوله تعالى : [انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ] [التوبة: ٤١] فقال : أي بني.. جهزوني (أي بعدة الحرب) فقال له بنوه : يرحمك الله.. فقد غزوت مع النبي ﷺ حتى مات، فنحن نغزو عنك.. قال: لا جهزوني، فغزا في البحر فمات في البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها، إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها.

ولم يقتصر ذلك على أصحاب رسول الله، بل على التابعين ومن تبعهم بإحسان، فعن حيان بن زيد قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، فرأيت شيخاً كبيراً هرماً، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق

---

(١) المرط : الكساء . النهاية في غريب الحديث والأثر (٣١٩/٤) .

(٢) المرحل : الْمُرَحَّلُ الَّذِي قَدْ نُقش فِيهِ تَصاوير الرِّحَال . النهاية في غريب الحديث والأثر (٢١٠/٢) .

(٣) ابن كثير (٤٦/٦).

(٤) كيف نتعامل مع القرآن العظيم. د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٤١٤-٤١٥.

على راحلته فيمن أغار ، فأقبلت عليه فقلت : يا عم لقد أعذر الله إليك . قال: فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي: استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، إلا أنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله ﷻ[1].

وفي مجال المحرّمات والمنهيات نرى مثَلاً من أروع المواقف التاريخية الإنسانية في المسارعة إلى الانقياد لشريعة القرآن ، فعند نزول الآيات الكريمة من سورة المائدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

"ومن عجيب أمر الأنقياء لشرع الله أن فريقاً منهم حين بلغته هذه الآية، كان منهم من في يده الكأس قد شرب بعضها، وبقي بعضها في يده، فرمى بها من فِيه، وقال: إجابة لقول الله : [**فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**] قد انتهينا يا رب .. قد انتهينا يا رب [2].

وعندما علم القوم بتحريم الله ورسوله شربها وبيعها وإهدائها لغير المسلمين، فما كان من المسلمين حينذاك إلا أن جاءوا بما عندهم من مخزون الخمر وأوعيتها، فأراقوها في طرق المدينة إعلاناً من براءتهم منها [3].

لقد أحسن السلف الصالح التعامل مع هذا القرآن العظيم، فهْمه وتدبّره وفقه مقاصده والعمل به ، فغيّر القرآن حياتهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور .. هم ومن تبعهم بإحسان من الأجيال القرآنية ثم خلف من بعدهم خلف اتخذوا هذا القرآن مهجوراً.. في تلاوته وتدبّره والعمل به -ولا حول ولا قوة إلا بالله- .. فالسلف الصالح رُزقوا تلاوة القرآن ، وتدبر القرآن ، والعمل بالقرآن .. فرفع الله ذكرهم..، حرّروا العباد والبلاد.

ورُوي عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال[4]: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا بسورة ونحوها ، ورُزقوا العمل بالقرآن ، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن، منهم الصبي والأعمى ، ولا يُرزقون العمل به.

وفي هذا المعنى قال ابن مسعود: إنا صعبٌ علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب العمل به [5].

---

(١) صفوة التفاسير، الصابوني، مرجع سابق، مجلد ١، ص٥٣٩.

(٢) كيف نتعامل مع القرآن العظيم. د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٤١٦.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٤) تدبر القرآن لماذا وكيف .. إبراهيم بن عبد الرحمن التركي http://www.islamdoor.com/382htm

(٥) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١-٣٩، ٤٠).

كما قال ابن القيم: " ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده من تدبّر القرآن وجمْع الفكر على معاني آياته، فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها ، وعلى طرقاتها وأسبابها وثمراتها ومآل أهلها، وتضع في يده مفاتيح كنور السعادة والعلوم النافعة، وتثبيت قواعد الإيمان في قلبه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبرة ، وتُشهده عدل الله وفضله ، وتعرِّفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله ، وما يحبه وما يبغضه ، وصراطه الموصل إليه ، وقواطع الطريق وآفاته، وتعرّفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، فتُشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيِّبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميِّز له بين الحق والباطل في كل ما يختلف فيه العالم ، وتعطيه قوة في قلبه ، وحياة واسعة ، وانشراحاً ، وبهجة وسروراً ، فيصير في شأن والناس في شأن آخر، فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذِّره وتخوِّفه بوعيده من العذاب الوبيل وتهديه في ظُلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبصِّره بحدود الحلال والحرام وتوقفه عليها؛ لئلا يتعداها فيقع في العناء والطويل، وتبصّره بحدود الحلال والحرام وتوقفه عليها ؛ لئلا يتعداها فتقع في العناء الطويل، وتناديه كلما فترت عزماته: تقدّم الركب، وفاتك الدليل، فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل، فاعتصم بالله واستعن به وقل حسبي الله ونعم الوكيل"[1].

ولا سبيل إلى إنقاذ الأمة من ضياعها وتمزقها وهوانها على الناس.. إلا بالرجوع إلى هذا القرآن تلاوة وتدبراً وعملاً ومنهاج حياة.. ففيه رفعة الأمة وذِكرها ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠].

(١) مدارج السالكين: ابن القيم، ج١، ص٤٨٥-٤٨٦.

المبحث الثالث

تعزيز المنهج التربوي للتدبر في المنهاج الفلسطيني بالجامعات الفلسطينية

رؤية تربوية

منهج التربية الإسلامية:

الجماعة الأولى هي الجماعة التي ربّاها الرسول ﷺ على عينه، ومنحها كل جُهده ورعايته وتوجيهه، والتي اجتمعت لها عناصر التربية الإسلامية بكل تمامها، على يد أعظم مُربٍ في التاريخ.

وأنها هي المقصودة أولاً بقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولقد كانت خير أمة في تاريخ البشرية كله، وحدت من ألوان العظمة في كل اتجاه ما لم يجتمع لأمة أخرى في التاريخ بهذه الوفرة وذلك التعدد وتلك الآفاق(١).

وكان منهج التربية الإسلامية (نظاماً) أي أنه بمفهومه وخصائصه وأسس بنائه وعناصره يكون كُلاً متكاملاً.. كل جزء فيه يتأثر ببقية الأجزاء ولا يؤثر بها فيها.

وبما أنه نابع من التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة فهو منهج رباني في مصدره وغايته ؛ لذلك فهو يزوّد الإنسان المتعلم بمجموعة من الخصائص والمعايير والقيم الإلهية الثابتة التي توجّه عمله وتعينه على عمارة الأرض وفق منهج الله –سبحانه–.

وقد وردت لفظة "منهاج" في قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] فالشِّرعة هي الشريعة وهما الطريقة الظاهرة التي يُتوصل بها إلى النجاة والمنهاج الطريق البيِّن الواضح المستمر(٢)، ويقول ابن كثير: " والمنهاج: هو الطريق الواضح السهل، والسنن والطرائق "(٣).

وإن منهج الإسلام سهل وميسر ؛ لأنه منهج رباني "ميسّر" للذكر.. ولكل البشرية في المكان والزمان .. وأن المدرسة الحقيقية الأولى هي مدرسة محمد أعظم المربِّين –عليه الصلاة والسلام– ، لكن أعداء الأمة عندما أدركوا خطورة هذه المدرسة.. وكيف صنعت أجيالاً فريدة على مدار التاريخ، ما انفكوا يخطِّطون بمكرٍ ودهاء ؛ ليبعدوها عن منهج الله –سبحانه– من كتاب وسنة فعملت على إضعاف الأمة وعزْلها

---

(١) منهج التربية الإسلامية: محمد قطب، دار الشروق، ط٣، ج٢ (في التطبيق)، ص١٥.

(٢) جامع البيان من تأويل آي القرآن: الطبراني، مرجع سابق، ج٦، ص٢٦٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص٦٦.

عن مصادر عزّها ومجدها وذِكرها.. وهذا ما كان ، ولا يصلح حاضر الأمة ومستقبلها إلا بما صلح به ماضيها، إن تمسّكت بمنهج ربها وعملت على تطبيقه واقعاً في الحياة.

ويُنظر للتربية الإسلامية على أنها التطبيق التربوي للنظام الإسلامي، والترجمة العملية الميدانية للفكر الإسلامي في ميدان التربية، وهي تعنى: تنشئة وتكوين إنسان مسلم ومتكامل من جميع نواحيه الأخلاقية والإدارية والإبداعية في جميع مراحل نموه في ضوء المبادئ والقيم الإسلامية، وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي جاء بها الإسلام، وأن الغاية النهائية للتربية الإسلامية هي: تحقيق العبودية لله –تعالى– في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية(١).

وهذه الغاية لا تتحقق إلا: بإعداد الإنسان الصالح القادر على عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله تعالى(٢).

كما يُنظر إلى التربية الإسلامية وفي ضوء ما يُدرس في الجامعات من عناصر المنهاج كالقرآن وعلومه والتوحيد والحديث والفقه والتفسير وغيره.

وعليه فإن تدريس القرآن الكريم وعلومه والسيرة النبوية في فلسطين، تعتبر متطلبات أساسية في الجامعات.. وتُدرس كأمر لازم في جميع مراحل التعليم الجامعي.

ومن هنا تنبثق أهمية العناية بطرق التدريس وأساليب التعليم المستنبطة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، مع الاستفادة من الأساليب والوسائل الحديثة التي تحقّق الأهداف المرجُوّة من تربيتنا الإسلامية ومن دراسة القرآن وعلومه والسنة المطهرة.

كما تكمن أهمية تعزيز وسائل التدبر في ذلك المنهاج، والاستفادة من الوسائل التعليمية، واستراتيجيات التعلم والتعليم في مجال القرآن الكريم ، ولا سيما التدبر ، والذي يحقق الغاية من القرآن الكريم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص:٢٩].

ويهدف البحث إلى تعزيز المنهج التربوي للتدبر عبر الاهتمام:

بالمنهج .. والمعلم .. والوسائل التعليمية.. ووضْع نماذج للتدبر

ويمكن تضمين المنهاج بالتالي: "ما ورد عن حقيقة التدبر في المبحث الأول":

أ. التدبر في القرآن الكريم: مواضع الأمر بالتدبر، أهمية التدبر، وسائل التدبر، موانع التدبر، شروط التدبر، مقاييس قرآنية للتدبر.

ب. ما ورد في المبحث الثاني عن نماذج تطبيقية "أحوال السلف في تدبر القرآن".

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها: عبد الرحمن النحلاوي، ط٢، دمشق، ١٩٩٢، ص١٠٨.

(٢) منهج التربية في التصور الإسلامي: علي أحمد مدكور، بيروت، ص٣٣٨.

ج. تضمين المنهج العلمي للمحتوى الدراسي الجامعي عن التدبر وموضوعاته الأساسية في القرآن:

ويسعى الباحثان لتعزيز المنهج بتحقيق الأهداف التربوية التالية:

- العمل على رفع درجة التغطية لموضوع التدبر وربطها بالواقع العملي.
- الإلمام بالمعارف الأساسية للموضوع .. والمقاييس القرآنية للتدبر.
- إعداد المعلم لشرح وتعزيز التدبر للطلاب بالطرق المثلى.
- إعداد الطالب لاستيعاب التدبر في المنهج الجامعي المستهدف في علوم القرآن.

تطبيقات تربوية:

الموضع الأول:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤]

(تدبر الصدق الاجتماعي للقرآن..):

ففي القرآن دعوة متكررة إلى دراسة الاجتماع الإنساني ابتداءً من الماضي حتى الحاضر ؛ لاكتشاف آثار سنن الله في قيام المجتمعات وانهيارها، ولتدبر صدق هذه السنن الاجتماعي يُستعان بأسلوب التأويل من خلال دراسة ما آل في الحياة الاجتماعية من تقديرات قرآنية.

فإذا أخبرنا القرآن عن سنة من سننه في تكوين الأسر وعلاقات الجنسين مثلاً: بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢] فإن تحري واقع المجتمعات التي تهاونت إزاء هذه السنة قد أثبت أن الزنا "فاحشة" نفسية وسبيلاً سيئاً يجلب إلى الأجساد أمراضاً قاتلة مهلكة.

الموضع الثاني:

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]

(تدبر الصدق التاريخي للقرآن)

وفي القرآن كذلك دعوة لدراسة تاريخ المجتمعات والأفراد لاكتشاف آثار سنن الله فيمن أطاعوا وفيمن عصوا ، "ولتدبر" الآيات النفسية والاجتماعية المصدقة لهذه السنن، فحين يخبرنا القرآن أن الله أجاب استغاثة فرعون وإيمانه عند الغرق بقوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٢] فإن الفحوصات "التي أجريت مؤخراً" على جثة فرعون موسى (أمنحوتب الثالث) وجدت الأملاح في جثته أو مومياته وقدّمت الدليل الناصع على موته غرقاً، واستمرت جثته آية لمن خلفه في عصرنا هذا"[1].

(١) مناهج التربية الإسلامي والمربون العاملون فيها، د.الكيلاني، مرجع سابق، ص٣٤٣.

الموضع الثالث:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص:٢٩].

(تدبر الصدق العلمي للقرآن)

كذلك يدعونا القرآن إلى النظر في الكون وتدبر آيات الكتاب التي تتحدث عن هذا الكون تدبراً يقدّم شواهد صدق آيات الكتاب من آيات الآفاق ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣] بحيث يتظافر الأسلوب العلمي مع أسلوب التدبر ؛ لتحقيق غايات التدبر وأهدافه.

الموضع الرابع:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]

(تدبر التركيب البنائي للقرآن)

وهذا يرتبط (بالظواهر القرآنية) التي تتناول:

١. معنى الكلمة.

٢. تخير الكلمة القرآنية.

٣. هدف الكلمة القرآنية.

٤. الشكل الخارجي للكلمة القرآنية.

ومن الطبيعي أن تكون الخطوة الأولى لفهم القرآن الكريم هي تدبر كلماته.

وإذا كان النظام الكوني يمتاز بأن كل ذرة من ذرات الوجود وُجدت لحكمة ووُضعت في مكانها الخاص بها .. وهذا النظام الكوني من الذرة إلى المجرة لو اختل أو حدث أي تغيير فيه لاختل جانب من جوانب الحياة.. فإننا نجد أيضاً في النظام القرآني أن كل كلمة في القرآن وُضعت في محلها الطبيعي بحيث لا يمكن أن تسُدّ مكانها أية كلمة أخرى ، ولا أن تعطي نفس الأبعاد والظلال التي تعطيها تلك الكلمة، كذلك في هدف الكلمة، وشكلها الخارجي، والارتباط والتسلسل والتصنيف لها[1].

حول تدريس أو تعليم التدبر:

حقاً هنالك الآن الكثير من المدارس المختصة بتحفيظ القرآن الكريم، فهل توجد مدرسة واحدة مختصة بتدبر القرآن وتعليمه؟! إنه حقاً أمر مُلفت للنظر، فإن علمنا أن الهدف الأعظم من إنزال القرآن هو: أن نتفهم ما فيه من أحكام ؛ لنعمل بها ونطبّقها، حتى ولو لم نحفظه ؛ إذ أن الله –تعالى– لم يكلِّف العباد بحفْظ القرآن كاملاً، بل يكفيهم من الحفظ ما تصح به صلاتهم، وما يستشفون ويتعوّذون ويتحصنون

(١) المرجع السابق، ص٣٣٤ بتصرف.

به، أما تدبر القرآن ومعرفة معانيه فالأمة مأمورة ومطالبة به، والحال كذلك، فإننا مع الأسف نهمل ما نحن مُكلّفون به، ونكتفي بما لسنا به مكلفين[1].

هذا التمهيد يقودنا إلى أهمية وجود مساق في الجامعات الفلسطينية (ضمن منهج القرآن وعلومه) يتعلق بالتدبر .. والاهتمام بهذا الموضوع ؛ لما للقرآن وتدبره من فضلٍ في حياتنا كلها ؛ لأن سلفنا الصالح تمسّكوا بالقرآن حِفظاً وعملاً وتدبراً، وطبّقوه في حياتهم، فكان نبراسهم ، إليه يتحاكمون، وبه يتمسكون، فسادوا وتحقق لهم التمكين في أرض الله –تعالى– ، وتلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا.. فما أحوج الشباب –الجامعي– المؤمن ومعه الأمة كلها بالعودة لكتاب ربها وتدبره والعمل به ولسنة نبيه ﷺ .

إن ذلك المساق التعليمي بالجامعات حول التدبر .. يتطلب وجود معلمين أكفاء ، وقدوة للمتعلمين تتناسب مع عظمة هذا الموضوع والذي أُنزل القرآن الكريم لأجله..

لذا يجب على المعلم (الذي يقوم بتعليم القرآن وعلومه كالتجويد أو التدبر) أن يتجاوز عوائق تدريس المادة ومنها:

- عدم استشعار الإخلاص والنية لدى المعلم، باعتباره أن تعليم القرآن مجرد وظيفة ليس إلا.
- أن يتسم بسعة الأفق ويتخطى ضيق الأفق أحياناً.. ويتجلى بالأخلاق الكريمة أمام المتعلمين.
- ألا يمتاز بالضعف في شخصيته أو إدارة المحاضرة بشكل جيد.
- أن يحب المادة .. ويتجاوز عدم حبه وميله لتدريس هذه المادة لسبب أو لآخر ، ويعلم أن فيها خيري الدنيا والآخرة.
- أن يُنمّي مهاراته التربوية، ولا يمتاز بافتقاره لتلك المهارات المتعلقة بتدريس مادة التدبر أو مواد القرآن الكريم.
- أن يتجاوز قلة الخبرة التربوية، ومخالفة قوله لعمله.
- أن تُسند هذه المواد لمن يهواها ويكون لها أهل.. فيدرِّسها وهو غير راغب فينعكس على تدريسه بالسلب.

ويمكن تصنيف الصفات المطلوبة لمعلم المواد القرآنية كالتدبر وغيره بصفات أهمها:

١. الصفات الإيمانية: كالإيمان بالله سبحانه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، وأن يعمل بمقتضى هذا الإيمان من خلال المحافظة على عقيدته وشعائر دينه، وأن يتحلى بالتقوى والثقة بالله والتوكل عليه، والإخلاص وعدم تعارض قول المعلم مع عمله وفكره.

٢. الصفات الخلقية:

---

(١) أفلا يتدبرون القرآن: أ.د. ناصر العمر، مرجع سابق، ص١٠٢.

كالصدق والصبر، والعدل والرحمة والتسامح والأمانة والتواضع.

٣. الصفات النفسية:

كالاستقرار، التوازن، الثقة بالنفس، التكيف النفسي والاجتماعي، والبشاشة.

٤. الصفات العقلية والمهنية:

- كالذكاء : فالمعلم مطالب بإيجاد الحلول للمشاكل المتجددة، والتعامل مع أصحابها بمستوياتهم العلمية والعقلية.
- الابتكار وسعة الأفق.. بأن يكون المعلم متحرِّراً من التقليد متسماً بطلاقة الفكر والقدرة على الإنتاج الجديد ، ومواظبته على المطالعة والبحث بما ينمّي معارفه وقدراته ويوسِّع مداركه وهذا يتأتى بالمعرفة الواسعة للمعلم ودرايته واطلاعه على العلوم الأخرى وسعة ثقافته.
- وأن يكون مطَّلعاً على المجالات والأساليب والوسائل والتقنيات التعليمية، واستراتيجيات التعلم والتعليم.. التي تتأتى عن طريق:

- الوسائل والتقنيات التربوية المستخدمة في تعليم القرآن الكريم وتدبره، كالتسجيلات الصوتية لسوره وآياته والأفلام التسجيلية والحاسوب " الكمبيوتر " والصور والخرائط، وكذلك الوسائل التعليمية المختلفة، وتمثيل الأدوار وضرب الأمثال، كما هو واضح في قصص الأنبياء والأشخاص ، ولا نُغفل دور تلك الوسائل من آثار في تقريب المدركات وتوضيحها وإعطائها صورة حية، فالأفلام التسجيلية مثلاً يمكن أن تفيد في توضيح الآيات القرآنية المتعلقة بمناسك الحج وشعائره وأماكنه، وبذلك يتحقق الربط بين الآيات الكريمة وواقع حياة الطلاب، بحيث يتمكن المتعلمون من إدراك الأهداف والأحكام والأفكار العامة والجزئية التي تدل عليها الآيات.

القواعد الأساسية التي تتعلق بالمحتوى الدراسي:

ذكر الأهدل[١] ست قواعد أساسية لها علاقة مباشرة بالمحتوى الدراسي وهي كما يلي:

١. الاهتمام بالاستعاذة.
٢. شرح الكلمات والجمل والآيات.
٣. ربْط أحكام التجويد بالمعاني.
٤. الموعظة والتحذير من الذنوب الصارفة عن التدبر.
٥. إدراج حصة التدبر في الدرس القرآني.

---

(١) تعليم تدبر القرآن الكريم (أساليب عملية وفرص منهجية) د. هاشم بن علي الأهدل، مرجع سابق، ص٣٠.

٦. التربية على شكر نعمة التدبر.

وبيّن فيها ضرورة البدء في الاستعاذة حين قراءة القرآن ؛ لأن الشيطان يجتهد لصرف العبد عن أنواع العبادة، ، ومن ذلك اجتهاده في صرف القارئ للقرآن عن تدبر وفهم معانيه.

كما يساعد على التدبر أن يفهم المتعلم معاني الكلمات والآيات التي يقرؤها ، حيث يوجد في كتاب الله بعض الكلمات التي لا يفهمها الطلاب.

كما أن سلامة التلاوة وإتقان التجويد يزيد الفهم، ويُكمّل الإدراك ويعين على التدبر.

كما أن الانهماك في الذنوب والمعاصي يصرف المتربي عن تدبر القرآن..

وحين يتربى الطلاب على حصص التدبر، تصبح جلسات تدارس القرآن ثقافة شائعة في المجتمع وأن يتربى المتعلمون على شكر الله –سبحانه– على أن يسّر لهم قراءة كتابه وفهم آياته وتدبرها[1].

لذلك كله يجب إعادة الاعتبار لمعلم القرآن ، لا سيما وقد دأب الاستعمار والذي حاول جاهداً أن يصرف الأمة عن كتاب ربها وتدبره.. بحيث يبقى القرآن للمناسبات والتعليق على الجدران والمياتم.. كما حاول الاستعمار أن يشوّه صورة معلم القرآن وقارئه ؛ لدرجة تُنّفر الناس منه وتنفّرهم من دين الله –سبحانه– ، فيثير صورة في الإعلام المشبوه بأنه صاحب الأطعمة والقراءة على المقابر والولائم والمياتم.

لذا يجب علاج تلك الصورة لمعلمي القرآن على النحو التالي مثلاً:

- انتقاء النخبة الممتازة والمؤهّلة من المعلمين حفظاً لكتاب الله –تعالى – وتطبيقاً لأحكامه وتجويده وتدبره ؛ للقيام بتدريس القرآن الكريم.. لا سيما مساق التدبر.
- انتقاء المعلّمين الربانيين الذين يكونون قدوة للمتعلمين علمياً وأخلاقياً، بحيث تتوفر في معلم القرآن صفات كثيرة أهمها: إخلاص النية لله –تعالى– ، والتمسك بعقيدة السلف، والالتزام الأخلاقي بأوامر القرآن، واجتناب نواهيه، والإلمام بأساسيات علوم القرآن والشريعة.
- أن يكون تعليم القرآن بالاختيار وللمعلم ، ولا يكون تعيينه إجبارياً حتى يبدع في مجال عمله.
- إعلاء شأن معلمي القرآن الكريم، وحفظ مكانتهم وإظهارهم بما يليق ومعلم القرآن.
- وتحفيز المعلمين مادياً ومعنوياً ؛ لمحو الصورة المشوّهة التي رسمها الاستعمار وأعوانه لمعلمي كتاب الله –تعالى–.. سواء في المؤسسات التعليمية.. وخارجها.

لأن ذلك كله يحفّز المتعلم وبربطه بالقرآن حفظاً وتلاوة وتدبراً ؛ لأن الطلبة والمتعلمين هم قادة المستقبل.. ولينصرن الله –سبحانه وتعالى – من ينصره.. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ولعل أولئك المعلمون يحقّقون من طلبة العلم .. بعد تعليمهم (نظرياً وعملياً) التدبر وأهميته وأهدافه ووسائله.. واستراتيجيات التعلم والتعليم للتدبر.

---

(١) انظر/ تعليم تدبر القرآن. د. هاشم الأهدل، بتصرف، ص٤٥-٦٢.

استراتيجيات تعلم وتعليم التدبر:

ذكر اللاحم[1] سبع علامات وصفات تصف حقيقة التدبر، ويمكن اعتبارها استراتيجيات لتعلم وتعليم التدبر وهي:

١. اجتماع القلب والفكر حين القراءة، ودليله التوقف تعجباً وتعظيماً.
٢. البكاء من خشية الله.
٣. زيادة الخشوع.
٤. زيادة الإيمان، ودليله التكرار العفوي للآيات.
٥. الفرح والاستبشار.
٦. القشعريرة خوفاً من الله –تعالى– ثم غلبة الرجاء والسكينة.
٧. السجود تعظيماً لله ﷻ .

فمن وجد واحدة من هذه الصفات، أو أكثر فقد وصل إلى حالة التدبر والتفكر، أما من لم يُحصِّل أياً من هذه العلامات فهو محروم من تدبر القرآن ولم يصل بعد إلى شيء من كنوزه وذخائره، رزقنا الله –تعالى– إياها طلاب علم ومعلّمين".

مقاييس قرآنية للتدبر:

كما وضع الشيخ العمر[2] مقاييس قرآنية للتدبر مشابهة لتلك، يتم بناءً عليها "قياس صلتك بالقرآن، ومدى عمق تأثيره في نفسك ومدى تدبرك لمعانيه وتأثرك بها" فقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ [الأنفال: ٢] يبيّن أن شعورك بزيادة الإيمان عند سماعك لتلاوة القرآن وهو دليل على تأثرك به، وعلى حُسن تدبرك له، وبالعكس إذا ألفيت قلبك قاسياً عند سماع القرآن يتلى، كان ذلك مقياساً دالاً على ضعف صلتك بالقرآن، وعلى حاجتك الماسة إلى جُرعات من التدبر لمعانيه وآياته".

فمن وجد من نفسه تأثراً، ومن قلبه امتثالاً أو وجَلاً، ووجد زيادة في الإيمان إذا تُليت عليه آيات الرحمن، فليبشر وليؤمِّل خيراً، وإن وجد غير ذلك فليراجع نفسه ؛ حتى لا يكون القرآن حجة عليه.

---

(١) مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة: د. خالد بن عبد الكريم اللاحم، ط٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٢٥.

(٢) أفلا يتدبرون القرآن: أ.د. ناصر العمر، مرجع سابق، ص١٤٦.

إذن هناك علامات تدل قارئ القرآن الكريم بنية التدبر على أنه يسير في الطريق الصحيح بإذن الله ومنها[1]:

١. اجتماع القلب والفكر حين القراءة، أما السهو والسير في أودية الدنيا أثناءها فليس من سمت المتدبرين لكتاب رب العالمين.

٢. البكاء من خشية الله وزيادة الخشوع ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

٣. زيادة الإيمان والفرح والاستبشار ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

٤. الإعجاب بما في القرآن الكريم من الفصاحة والبلاغة والحكمة والكمال.

٥. القشعريرة خوفاً من الله –تعالى– ثم غلبه الاستكانة، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣].

٦. العمل بما في هذا الكتاب من أعظم الأدلة على تدبر القارئ لما يقرأ ؛ لأن العمل من لوازم التدبر.

٧. استخلاص العبر والحكم من القراءة، وإنزالها على واقع القارئ وحاله، فهذا الربط بين القراءة والواقع دليل واضح على التدبر.

ويمكن إجمال القول أنه وبعد محاولة الباحثين إظهار مفهوم التدبر، وغاية التدبر وأهميته ووسائله وأهدافه وطرق تدريسه، وضرورة تعزيز المحتوى الدراسي، والقواعد الأساسية التي تتعلق به والصفات اللازمة لمعلمي القرآن وتدبره، واستراتيجيات تعلم وتعليم تدبر القرآن (ويقصد منها المقاييس الدالة عليه وتساعد المتعلم على تعلمه أو تعليمه والتي تثبت المعلومة لدى المتعلم، وتكسبه التغذية الراجعة، وربط كل ذلك بنفسية الطالب وواقعه وواقع القرآن والتدبر فيه).

كما ذكر الباحثان مقاييس قرآنية للتدبر التي أجملها شيخنا العمر حفظه الله، كل ذلك يدعو لتعزيز منهاج التدبر في الجامعات الفلسطينية.. وتحديد مساق خاص بالتدبر بالإضافة لعلوم القرآن.. ذلك للإهمال الموجود –وللأسف– بهذا المجال في الجامعات الفلسطينية.. علماً أن التدبر هو الغرض الذي أُنزل القرآن لأجله حتى يربط المسلم بين تلاوة القرآن وتدبره والعمل به.. على بينة ونور.. مهتدياً بأعظم مُربٍّ في التاريخ عليه كل الصلاة والسلام.. والسلف الصالح الذي وعى القرآن وتدبره وعمل به وطبقه.

---

(١) أفلا يتدبرون القرآن: أ.د. ناصر العمر، بتصرف، مرجع سابق، ص١٤٦-١٤٧.

وإذا كان للمعنى في كل مساق أو مادة مقروءة أهمية عظمى، فالمادة المقروءة لا تعني شيئاً إلا إذا فُهم معناها، وعُرفت من خلال المعنى، فالقراءة ثم التدبر هو وسيلة الفهم والتطبيق، وهذا ما يجب تعزيزه في مناهج الجامعات الفلسطينية وغيرها ؛ لخطورة وأهمية الموضوع، بما ذلك من أثر في نهضة الأمة من كبوتها وتخلفها ، ولتتدبر كتاب ربها وتعمل به لتُبعث من جديد، فهو المنهاج الرباني الذي جرّبته الأمة فأخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور وعدل وخير وعز الإسلام ، وذكرها الله –سبحانه– به، وهو المنهج الرباني الذي جرّبته فنقلها من أمة تئد البنات وتعبد هبل ومناة والعزى واللات وتقتلها النعرات والثارات إلى عبادة رب الأرض والسماوات.. فكانت خير أمة أُخرجت للناس.

منهج عملي وتطبيقي للتدبر

"كل المنهج في أم الكتاب"[1]

لماذا اختار الباحثان هذا النموذج العملي للتدبر .. وهو تدبر سورة الفاتحة؟

١. لأن رسول الله ﷺ—كما ورد في صحيح البخاري عن أبي سعيد المعلى- قال: أن النبي ﷺ قال له: (لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)[2].

٢. لأنها لا تصح الصلاة أو التعبد إلا بفاتحة الكتاب ، بل وتبطل كل صلاة لا تُذكر فيها ؛ لما ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ : "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"[3].

٣. لأنها ضرورية للتدبر ، ولكل المسلمين ، مع اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأعمارهم.. وطلبة علم ومُعلِّمين.. وهي السورة الوحيدة التي يجيبك الله —سبحانه- فيها بنفسه بعد كل آية من آياتها.

٤. كان منهجه عليه كل الصلاة والسلام التدبر فيها ، كما جاء في حديث أم سلمة -رضي الله عنها- ، كان ﷺ يقطّع قراءته آية آية (الحمد لله رب العالمين) ثم يقف (الرحمن الرحيم) ثم يقف"[4].

٥. وإذا كانت هذه السورة أعظم وحي أوحاه الله- سبحانه وتعالى- طوال تاريخ النبوات: وهي في كل الصلوات.. فكم من الوقت منحناه لتدبر هذه السورة العظيمة؟ ونحن مطالبون ومأمورون بالتدبر فيها، وفيها هذه الفضائل والتعظيم والمكانة !!

٦. أن السورة تلخِّص حقيقة العبودية لله ﷻ وأنه المستعان وحده.. ولا نعبد إلا إياه، وهو رب العالمين وأرحم الراحمين.. والهادي إلى كل صراط مستقيم.. وإذا كنا قد أوجب الله علينا تدبر القرآن الكريم كله -للعمل به- فهذا النموذج العملي في كل صلاة وكل قراءة يعطى صورة عملية وخاصة لأهمية التدبر، فهي أعظم سورة بكتاب الله —سبحانه- ، وتكون هذه السورة نموذجاً عملياً واضحاً وحجة علينا دامغة بوجوب التدبر - إن كان في غاية الوضوح في أم الكتاب وكذلك في كتاب الله كله..

---

(١) مصادر هذا النموذج مستمدة من كتابين:

- أول مرة أصلي وكان للصلاة طعم آخر: د. خالد أبو شادي.
- الطريق إلى القرآن: إبراهيم بن عمر السكران، الكتيبات الإسلامية www.ktibat.com

(٢) صحيح البخاري: ٤٤٧٤.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه الترمذي والحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها، كما في صحيح الجامع رقم: ٥٠٠٠.

والعبادة كلها سواء كانت العبادة صلاة.. أو قراءة.. أو تدبر.. فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال عليه الصلاة والسلام عنها : (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج غير تمام).

قال قلت يا أبا هريرة إني أحياناً أكون وراء الإمام! فغمز ذراعي وقال: اقرأ بها يا فارسي في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله ﷻ : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل: قال رسول الله ﷺ : اقرؤوا يقول العبد: (الحمد لله رب العالمين) يقول الله : حمدني عبدي، يقول العبد: (الرحمن الرحيم) يقول الله: أثنى علي عبدي، يقول العبد (مالك يوم الدين) يقول الله –تعالى–: مجّدني عبدي، يقول العبد : (إياك نعبد وإياك نستعين) يقول الله –تعالى– : هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، يقول العبد: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، يقول الله: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل"[(١)].

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: "بينما رسول الله ﷺ عنده جبريل قد سمع نقيضاً من فوقه، فرفع جبريل عليه السلام بصره إلى السماء فقال: هذا باب فُتح من السماء ما فُتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، ولن تقرأ حرفاً منهما إلا أعطيته[(٢)].

وهذا الشرح للتدبر أثناء التلاوة.. كما وضّحه رسول الله بهذه الوسيلة التوضيحية المفصلة.. من أعظم وسائل التربية الإسلامية.. في التدبر والتلاوة.. والعبادة.

تفاعلية القراءة وتدبر السورة:

استشعر أنك في مقام مخاطبة ومناجاة الرب –جل وعلا– ، فالحذر كل الحذر من التعرض لمقْته وسخطه بأن تناجيه وقلبك مُعرض أو مشغول عنه فتلتفت إلى غيره، فإنك بذلك تدعوه لمقْتك، وتكون بمنزله رجل قرّبه ملك من ملوك الدنيا، وأقامه بين يديه فجعل يخاطب الملك، وقد أعطاه قفاه، أو التفت عنه بوجهه يمينة ويسره، فهو لا يفهم ما يقول الملك (ولله المثل الأعلى) فما الظن بمقْت الملك لهذا، بل وما الظن بمقت رب العالمين وقيوم السماوات والأرض لمثل هذا العبد؟![(٣)] ثم تدبر مضامين هذه السورة أخي المسلم أختي المسلمة:

---

(١) صحيح، أخرجه مسلم عن قتيبة عن مالك.. في باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة برقم ٣٩٥: (١/٢٩٦).

(٢) صحيح أخرجه مسلم عن الحسن بن ربيع عن أبي الأحوص برقم ٨٠٦: ١/٥٥٤.

(٣) أول مرة أصلي وكان للصلاة طعم آخر، د. خالد ابو شادي، مرجع سابق، ص٢٩.

"بدأت هذه السورة بثلاث آيات كلها ثناء على الله، تعظيمه جل وعلا بربوبيته للعالمين، ثم تعظيمه جل وعلا بكمال رحمته، ثم تعظيمه جل وعلا بملكه لليوم الآخر[١]، وليتدبر القارئ حين يحمد الله بربوبيته للعالمين، ورب العالمين يجيبه فيقول : (حمدني عبدي) ثم يواصل القارئ فيثني على الله بكمال رحمته، ورب العالمين يقول: (أثنى علي عبدي) فإذا بلغ القارئ الآية الثالثة فأثنى على الله بملكه لليوم الآخر قال الله : (مجّدني عبدي)[٢]، فهل تساءلت وأنت تتدبر وتقرأ الفاتحة.. أو تمر بهذه الآيات الكريمات.. أن الله –سبحانه– مالك الملك العظيم الكبير المتعال؛ يتحدث عنك وأنت تقرأ الفاتحة وتتدبرها؟ ثم تدبر أو تأمل بالله عليك وأنت تقرأ هذه الآيات قوله تعالى في الحديث القدسي في صحيح مسلم أنها نصف الفاتحة حين قال : (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين)[٣] هذه الآيات الثلاث التي هي نصف الفاتحة، أيها أنها نصف أعظم سورة في القرآن كلها حمد لله وثناء على الله وتمجيد لله".

"فإذا تجاوزت هذه الآيات الثلاث وبلغت جوهرة السورة كلها (إياك نعبد وإياك نستعين) فتقديم المعمول إياك على العامل (نعبد) يفيد الحصر، فلا يُعبد إلا الله، والعبادة لفظ شامل، فإذا نطقتَ بهاته الجملة التي لا تتجاوز كلمتين (إياك نعبد) تهادت أمام ناظريك كل المألوهات من دون الله، وهذه الآية العظيمة تُسقط كل مطاع أو متبوع أو مألوه إلا الله، (إياك نعبد) وهي جوهر مشروع الإصلاح، وهي قاعدة النهضة، وهي مختبر الحضارة، وهي معيار التقدم وهي خُطته الثمينة، وهي قلب الفاتحة ، قلب أعظم سورة في كتاب الله.

وهذه السورة والآيات نكرّرها ونتدبرها.. أو الواجب تدبُّرها في اليوم عشرات المرات في كل ركعة من الفرائض والنوافل ؛ لأنها منهج حياة.

وأما الاستعانة في قوله : (وإياك نستعين) فهي عبادة مشمولة بقوله: (إياك نعبد) ولكن الله أفردها بالذكر في هذا الموضع من فاتحة الكتاب ؛ ليكون تنبيهاً مستمراً يسمعه المؤمن يذكِّره بأن المطلوب الأكبر وهو (العبادة) لا يكون إلا بـ(الاستعانة) وهذا الموضع في تعقيب العبادة بالاستعانة موضع أسهب فيه أئمة التأله والسلوك وفقهاء الطريق إلى الله في تأملاتهم الإيمانية[٤].

ثم تنتقل السورة إلى النصف الثاني الذي ذكره الله في الحديث القدسي السابق، ويبدأ بعد الثناء والتوحيد حالة الدعاء، فإن الله –سبحانه– قال : (هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) وهذا الدعاء هو (الدعاء

---

(١) الطريق إلى القرآن: إبراهيم بن عمر السكران، مرجع سابق.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ٩٠٤.

(٣) الطريق إلى القرآن: إبراهيم بن عمر السكران، مرجع سابق.

(٤) المرجع السابق.

بالهداية).. وإذا اختار سبحانه أن يكون أعظم دعاء بأعظم سورة في القرآن هو سؤال الهداية.. فهذا يشير إلى أن الضلال وشيك خطير مُخوّف[1].. ونستعين بالله أن ينجينا ويبعدنا عنه.

قال الإمام ابن تيمية –رحمه الله–: "وإنما فرض عليه من الدعاء الراتب الذي يتكرر بتكرر الصلوات، بل الركعات فرْضها ونفْلها، هو الدعاء الذي تتضمنه أم القرآن وهو قوله تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم) لأن كل منا فهو مضطر دائماً إلى مقصود هذا الدعاء وهو هداية الطريق المستقيم[2]، وهو الواحد المستقيم والذي لا يتعدد .. ومن خرج عنه خرج عن الإسلام.. فالصراط وصْف الإسلام، والمستقيم للسير على السنة المطهرة، كما ربط ذلك بتجارب الأمم الضالة والمغضوب عليها حتى نتجنّب طرقهم وضلالهم وتوليهم.. ومن يتولهم منكم فإنه منهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ ﴾ [المائدة: ٥١] والنصارى واليهود هم من شنوا الحرب على الإسلام وعلى ديار الإسلام وعلى القرآن ومنهجه ، وحاولوا وما زالوا يحاولون إبعادنا عن كتاب ربنا وتدبره وتحكيمه.. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

النتائج:

كان من أهم نتائج الدراسة ما يلي:

- أن القرآن كثيراً ما صرح بأن الغاية منه التدبر، وإن كانت الغاية من نزوله أبعد وأعظم من ذلك.. ولكن كثيراً ما جعلها القرآن غايته لأهميتها، فتدبر القرآن هو أساس العمل بالقرآن، وتعظيم القرآن ولا يمكن للأمة أن تعبر إلى تلك المراحل العملية من التطبيق والعمل والتحاكم وغيرها إلا عبر جسر التدبر، وقد جاء الأمر بتدبر القرآن في مواضع عدة.
- بيّنت الدراسة أهمية التدبر بأنه يحقّق الامتثال لأمر الله وعدم هجران كتابه والسنة المطهرة وأنه منهج النبي المربّي ﷺ .. وهو ضرورة وواجب على كل مسلم، ويحقق الطمأنينة والشفاء والتثبيت.
- كما أوضحت الدراسة وسائل التدبر، وموانع التدبر، وشروطه ومقاييسه.
- أكدت الدراسة أن منهج السلف الصالح كان (القراءة والتدبر والعمل).. وإن تدبر القرآن وتعظيمه والعمل به وتطبيقه هو الذي صنع ذلك الجيل القرآني الفريد.. في مدرسة محمد –عليه الصلاة والسلام– ، والتي خرّجت بذلك خير أمة أُخرجت للناس.

---

(١) الطريق إلى القرآن: إبراهيم بن عمر السكران، مرجع سابق (الكتيبات الإسلامية).

(٢) الفتاوى: شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٩٩/٢٢).

- إن الأمة عندما هجرت القرآن وتركت التدبر فيه والعمل به وتحكيمه أصابها التخلف والهزائم.
- إن المناهج في المدارس والجامعات تفتقر لهذه المادة أو هذا المساق وهو لا يقل أهمية عن المواد التي تُدرس لا سيما في علوم القرآن.
- بيّنت الدراسة أهمية وكيفية تعزيز منهاج التدبر في المؤسسات التربوية، لا سيما الجامعات الفلسطينية.

التوصيات:

- يوصي الباحثان بتعزيز منهاج التدبر في القرآن الكريم إن كان موجوداً في المؤسسات التربوية، وإن تعذّر وجوده فيجب العمل على إيجاد هذا المساق والمادة الهامة في المدارس والجامعات ؛ لأنها تُخرّج قادة المستقبل.
- يوصي الباحثان بتبني التوصيات الصادرة عن المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن من المؤسسات التربوية في العالم الإسلامي وتعميم ملخصات الأبحاث لكل الجامعات في العالم الإسلامي وأعمال المؤتمر ؛ لأهمية موضوع التدبر ، وبالتالي أهمية المؤتمر عالمياً.

وأخيراً .. نسأل الله العلي العظيم رب العرش العظيم أن يتقبل هذا الجهد المبارك من القائمين على المؤتمر وكل من يساهم في إنجاحه والنفع به.. آمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

المصادر:

- القرآن الكريم.
- موسوعة الحديث صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داود، سنن الترمذي، سنن النسائي، سنن ابن ماجة.. الرياض دار السلام ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

المراجع:

١. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن محمد السيوطي، القاهرة: الحلبي ط٤: ١٣٩٨هـ.
٢. أحوال السلف مع القرآن: سليمان بن عمر السنيدي، مجلة البيان، (هدي الإسلام) الرياض، ١٤٣٢هـ.
٣. أصول التربية الإسلامية وأساليبها: د. عبد الرحمن النحلاوي، ط٥، دمشق، ١٩٩٢م.
٤. أفلا يتدبرون القرآن: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
٥. أول مرة أصلي، وكان للصلاة طعم آخر، د. خالد أبو شادي، دار الراية، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٦. بدائع التفسير الجامع لما فسره ابن قيم الجوزية، ط١، دار ابن الجوزي، ١٤٢٧هـ/٢٠١٠م.
٧. تعليم تدبر القرآن: (أساليب عملية ومنهجية): د. هاشم بن علي الأهدل، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٨. تفسير البغوي (معالم التنزيل) الحسن بن مسعود البغوي، الرياض، دار طيبة، ط٣، ١٤٢١هـ.
٩. تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٠هـ.
١٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٥هـ.
١١. دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية: د. عدنان علي رضا النحوي ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
١٢. روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: محمود شكري الألوسي، طبعة دار التراث.
١٣. صفوة التفاسير لتفسير القرآن الكريم: محمد علي الصابوني، دار الصابوني، القاهرة، ١٤٠٥.
١٤. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الوفاء ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
١٥. كيف نتعامل مع القرآن العظيم: د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.
١٦. ليدبروا آياته: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

١٧. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، د.ت.
١٨. مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل الشيباني، دار إحياء التراث، ط٢، ١٤١١هـ.
١٩. مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة: د. خالد بن عبد الكريم اللاحم، ط٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
٢٠. مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، ط٣، ١٤٢٢هـ.
٢١. مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها: د. ماجد عرسان الكيلاني، مؤسسة الريان، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٢٢. وسائل تدبر كتاب الله: عبد اللطيف بن عبد الله التويجري، مجلة البيان (هدى للناس) الرياض، ١٤٣٠هـ.

مراجع من الشبكة العنكبوتية:

٢٣. تدبر القرآن لماذا وكيف: إبراهيم بن عبد الرحمن التركي http://www.islamdoor.com/382htm.
٢٤. الطريق إلى القرآن: إبراهيم بن عمر السكران، الكتيبات الإسلامية، www.ktibat.com.
٢٥. القرآن الكريم بين القراءة والتدبر والعمل، فضائية الجزيرة، برنامج الشريعة والحياة، مقابلة مع الشيخ ناصر العمر بتاريخ ٢٠١٣/٢/١٠، www.aljazeera.net.